قسطاكي الحمصي الحلبي

في رمز التاريخ

١٨٥٨—١٩٤١

عادل النضاف

في مستهل شهر مارس المنصرم روعت حلب بل روع العالم العربي بأفول نجم من نجومه المنيرة هو المرحوم قسطاكي الحمصي بك نقيا منه آخر كوكب — على ما نعتقد — من تلك الثريا المتألقة التي ظلت مدة نصف قرن ترسل من عليائها أنوار البيان العربي الصحيح

لئن اكبر العالم العربي فجيعته بالحمصي وفقد به مأثراً ساحراً وشاعراً عظيماً لقد فقدت حلب به ابناً من أبنائها البررة كان في العصر الحديث درة تاجها وعنوان فخارها وليست حلب بالمجهولة المكان في سماء الادب فقد أحبت كل عظيم وما فتئت معقل العرب ومستهل قرائحهم بآثارها الخالدة ومكتباتها العامرة وبساتينها النضرة وتاريخها الجليل فان مدينة تكون عربتها سيف الدولة وملتقى النوابغ الأعلام من مثل ابي فراس والمتنبي وابن خالويه وكشاجم الرملي وأبي علي الفارسي والمعري والبحتري والخالدي الى المراش والدلال وحسون والكواكبي والنزي والحمصي انها لحرية أن تباهي البلدان تيهاً وخيلاء وهي التي كان لها في النهضة الحديثة القدح المعلى فأول مطبعة عربية ظهرت في الشرق العربي كانت المطبعة الحلبية ثم نقلت الى لبنان وانتقل معها كوكبة من الحلبيين الأفذاذ ممن أخذت النهضة العربية بشغاف ليهم فبرزوا وقد توفر لهم الملجأ الأمين الى نشر مطاوي محاسنها واذاعة دفائن أسرارها وانتزاع الجرائد والفرائد من مفاوص دوحها بمؤلفات لا تزال الى اليوم ناطقة بفضلهم شاهدة بمجدهم منوهة بجدهم الخالد في حين كانت البلاد العربية الأخرى تغط في سبات عميق

لما شب الحمصي عن الطوق كانت حلب ولاية تركية غير ان الأثر التركي فيها وان شمل الجانب الرسمي منها وتجاوزه أحياناً الى بعض مرافق الحياة ما كان ليتوغل في صميم حياة أهليها وسجاياهم وعاداتهم وتقاليدهم ولاسيما في أدبهم وثقافتهم ولهوهم وطربهم وسياستهم واجتماعهم . وكابروا الى براعتهم في الشؤون المالية بسبب موقع حلب الجغرافي متأثرين بعوامل من الأدب العربي هي ثمرة ما غرسته في نفوسهم النهضة الحديثة من أصول الفنون والآداب وما هو أن يبلغ الحمصي أشده حتى يعمد الى الاستقلال بإدارة مصرف مالي كبير آل اليه من ابيه ولكنه مع ذلك لم يثن عن تحصيل العلم والاستبحار في الأدب متأثراً بذلك الجو الأدبي الذي ألمنا اليه

تبعد مدينة انطاكية عن حلب مسيرة ٩٠ دقيقة تتعلق فيها السيارة في ارض ممهدة قامت على جنباتها الآثار القديمة حتى اذا وصلت السيارة الى المدينة وتبعت سيرها صعداً الى رابية من روابيها تسمى «الحريات» رأى الزائر فيها قطعة من جنان الخلد قد نبتت بها يد التنسيق والتجميل فالصخور في أعلى الرابية تحجرت عن عيون من الماء انزلان قد سار في قوة اندفاع بين الأكم والتلعات الى رواق واسع منجرف الحافة ثم انحدر منهُ الى الوادي شلالات متفرقة بتطاير رشاشها وتلمع اضواؤها ويسكب ذوب اللجين فيها من علو شاهق على روضة أنف باسقة الاشجار غضة الغصون وارفة الظلال ثم يتفرع كل شلال جداول وسواقي تنساب السياب الرقشاء في ارض منبسطة حيناً وذات تعاريج ومنعطفات اخرى حافلة على زرد ضفافها وضاعيف أمواهها الري والحياة الى خمائل النوار ولفيف الشجر وظواهره السهل

وما أشبه الحمصي بهذه الجنة الغناء صورة وأثراً فنفسه كانت تفيض بمذهب البيان على هواها لا سلطان عليها في ذلك الاَّ التفاعل الذي يجري في جوانحه والتأثر الذي يحرك جوانب صدره فتنبثق منهُ عيون الشعر والشعر بقدرة الملكة التي حباه بها الله كما انبثقت تلك العيون الزلال بقدرة الله الذي حباها المتنفس . وما أشبه شتى الموضوعات التي نظم ردتها او نثر لآلئها بتلك الشلالات المتفرقة المبعثة الى الوادي تحمل اليه نسمات الحياة والخير العميم . فالشلال الاول فهو للدين

عرف الحمصي بأنهُ متدين مؤمن ولكنهُ لم يكن يفهم من الدين أنهُ أداة تعصب ذميم بل كان يفهم فيه العلاقة التي تربط المخلوق بالخالق والوازع الذي يقي النفس من نزعات الهوى والسبيل الى الاعتراف بوجود الله وخلود النفس وان تعددت النصوص بتعدد الديانات وكان رأيه في هذه الأديان كرأي جميع العقلاء في أن لشعب الأديان الصحيحة انما هي جداول مختلفة تلتقي عند مصب واحد هو الله خالق الأكوان والى هذا يشير بقوله :

كل يعبد الرحمن مذهبه والعقل يقضي بأوضح الطرق
الدين لله والبلاد لمن توطنوها من سائر الفرق

وللحمصي في هذا المضمار منظومة طويلة تربي على ١٥٠٠ بيت نظم فيها طرفاً من كتاب الاقتداء بالمسيح ونخباً من روائع مزامير النبي داود وحاك بردتها في أخريات أيامه تربى الى الله وزاق ورجاه أن يترك للشبية تراثاً روحيًّا تتوعب معانيه القدسية في هذا العصر الأنكر. واليك مستهل المزمور الخمسين منها وكلها على هذا النمط من السهولة والسلاسة قال .

رحماك ربي لا اله سواكا أنا عائذ بك لائذ بفناكا
فاغفر برحمتك العظيمة كل ما جنايته وتولني برضاكا
واقبل بأنعتك الجزيلة توبتي واغفر معاصي سائل غفراكا

قام الى جوار شلال الدين شلال ثان ما أحراه أن يكون تابعاً لهُ متحدراً منهُ ألا وهو شلال الأخلاق. نظر الحمصي الى الأخلاق نظرة الرجل الحكيم المهذب النفس الصافي السريرة

فأحب أن يتحلى بنو وطنه بمكارم الأخلاق فما أضاع الأمم شيء مثل تدهور الاخلاق وتسفلها ثم نظر الى الاخلاق من ناحية أخرى بعين الفيلسوف الاديب وقدر اثرها في رقي الدول وارهاف الاحساس وسمو العاطفة فراح يشيد بها ويدعو لها دعوة المؤمن بشأنها الرحيب ومقامها الاعلى وخير ما طالعناه له في النثر في هذا الباب كتابه « مرآة النفوس » وقد استهله بفصلين عقدهما في تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة وتأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق وكلاهما بحث ممتع فياض الدين فيها للاخلاق من أثر في نفوس الافراد والأمم

اما تغنيه بالأخلاق شعراً فقد أجزل فيه القول في غير موضع فتارة ينفخ في رباب الناصح الشفيق وطوراً يفرع العصا لذي الحلم وحيناً يصف مكنونات الصدور وما تحويه من زيف وزيغ وما انطوت الجوانح عليه من حسد ولؤم الى كثير من مثل هذه المواقف الشريفة التي دوّى فيها صوته بلسان الأخلاق . وللحمصي في الاخلاق قصائد ومقطوعات كثيرة منها مجموعة من المقطوعات سماها « مرآة الأخلاق » ومنها موشحات هي غاية الغايات في هذا الباب

لا بد لمن يدعو الى الدين ومكارم الأخلاق أن يكون من أكبر دعاة الوطنية وهذا هو الشلال الثالث الذي فاضت به جوانب نفسه عن آي الشعر وأخذ السحر

كان الحمصي عين أعيان حلب من المسيحيين وكان منزله مقتدى العظماء والكبراء من الاتراك والفرنسيين فما بعد غير أن صلته بهم ونفوذه لديهم وما كانوا يحيطونه به من رعاية واحترام لم يثنه يوماً عن الجهر بعقيدته الوطنية وعصبيته العربية . أما مبدؤه السياسي فوحدة سورية واستقلالها التام في ظلال الراية العربية مع ما يؤلفها من مختلف أديان وأجناس ومن العدل هنا أن نشير الى أن مسلمي حلب ونصاراها قد ضربوا أروع مثل للتآخي والوداد وفي ذلك يقول إبان ذبح الأرمن في أنطاكية وما جاورها ووقوع الخوف والهلع عند نصارى حلب وما كان من ذمام مجاوريهم العرب بمكان حلب سنة ١٩٠٩

كل حمد لنا صنعتم قليل ... وابر الشكر قاصر والطويل
قد حقنتم دماء قوم لهم في ... ذمة المسلمين عهد جليل
شهد الله انهم أقرب النا ... س اليكم مودة والرسول
هذه سنة الاكارم طراً ... هكذا يحرس الخليل الخليل

ولما كان عضواً في مجلس الشورى بدمشق عهد بعض الساسة الى المناداة باستقلال حلب عن دمشق فاستقال من المجلس وقال قصيدته « الحلبية » المشهورة

انا لقربك بعد الهجر ميعاد ... فكار في وحشة والصحب ارصاد
حاشا لقومي ان يرضوا بفرقتنا ... وبينهم رب غيث ونقاد
اني اضن بقومي كيفما فصلوا ... من ان يفرقهم غل وأحقاد

وكم ثارت نفسه النبيلة عند ما كان يرى زمام الأمر في يد غير أهله وعند ما كان يرى الجهال والأدعياء متربعين في دست المناصب والنيابة فاسمعه يقول في مجلس المبعوثين التركي :

ولا بدعا ونحن في ميدان الكلام عن الوطنية الا ان امرض ولو لماماً لآراء الحمصي في السياسة العالمية وما اتصل بها من شؤون هزت مشاعره وانطقت لسانه فكاد لاتفتق ريح الحرب العظمى حتى ينظم قصيدته الكبرى « داهية الدواهي » وعند ما يدور القضاء دورته وتتمكن جيوش الحلفاء من فتح بيت المقدس يسجل لها ذلك الفتح بقصيدة عصماء يقول فيها :

رتي الحد يا معابد اورث ... لهم للقائمين جداً مضوّع
صدق اليوم قول كل نبي ... نظم الشعر لي حماك وسجع
منك يأتي خلاص الناس طراً ... من عداه عم الشعوب وروع
ويرى الخلق فوق طورك نوراً ... خلة الشرق تنجلي حين يسطع

سافر الحمصي غير مرة الى فرنسا واختلط برجالاتها كما اختلط بمدنيتها وشاهد مجالي ثقافتها وحضارتها ومظاهر لهوها وطربها وأقانين طوبها وآدابها واستمع لخطبائها ودعاتها فنراه قد خص فرنسا بكثير من قصائد ضمنها ذكرياته وأودعها ما وقعت عليه عينه من آياتها وروائعها غير ان حبه وطنه وأمنيته الكبرى في ان يرى سورية مستقلة حرة لم يمنعه في مستهل هذه الحرب الجديدة من أن يدعو لفرنسا بالنصر والتأييد في مقالة منثورة هي قطعة من الادب الرفيع ولما منيت فرنسا بكارثتها الكبرى نظم فيها قصيدته « أصدق الخبر في عبرة العبر » ورثى فيها لفرنسا وحمل حملة شعواء على الاشتراكية والشيوعية قال في مطلعها :

أكذا تكون مصارع الآساد ... أكذا تخر صماك الاطواد
ايه فرنسا ما اصابك بغتة ... حتى نعيت كسيد الاسياد
لو ان برج النسر زلزل بالأ ... ما كنت اعظم منك في الاعضاد

لا مشاحة في ان من يتعصب لوطنه يتعصب للغته وهذا هو الشلال الرابع الذي سال من نبع قريحة الحمصي وانسكب على رياض العالم العربي فأروى وأمرع

أما النثر فتأنق فيه دون ما تكلف ولا تصنع تأنقه في ملبسه ومأكله واختيار تحفه ورياشه بل تأنقه في خطه الفارسي الجميل وله فيه طريقتان لا تقل كلتاهما عن طريقة أكثر كتّاب العربية القدامى والمحدثين فان عمد الى الادب والوصف حتى في رسائله الى اخوانه طرز كتابته بالسجع وان عنّ بنسج بردة بحث لغوي او تاريخي او علمي استخدم النثر المرسل وهو في هذا وذاك يتوخى بالوضوح واشراق الديباجة وشرف اللفظ ومتانة الحبك وجمال الأسلوب قد أخذت منه خلة الاستقراء والاستقصاء ودقة البحث والتحقيق مأخذاً عز له فيه النظير

على ان نحفة نجد في رأينا هو كتاب « منهل الوراد في علم الانتقاد » فقد نحا في هذا المؤلف الفريد في بابه منحىً جديداً في أصول النقد وترتيب أبوابه وتقسيم فصوله ثم موازنته

بين الأسلوبة الالهية لذاتي ورسالة الغفران لأبي العلاء وهي بحث طريف ذهب فيه الى أن الأسلوبة الالهية انما هي صورة من رسالة الغفران فإما أن يكون دانتي قد قصد مدرسية قرطبة وتعلم اللغة العربية فيها واطلع على هذه الرسالة وإما أن يكون قد وقف على ترجمة لها ولا سيما ان أمراء الاندلس كثيراً ما كانوا يبحثون عن المؤلفات الجديدة كما كان علماء اليهود من العرب في الأندلس يترجمون المؤلفات العربية الى اللاتينية أو إلى العبرانية ومنها الى اللاتينية

ومن أمثال غيرته على اللغة العربية قصيدته البديعة ذلك انهُ قام في صيف سنة ١٩٢٠ نفر من الشعوبيين في بيروت ولبنان يدعون الناس الى العالم من حكومتهم أن تجعل اللغة الفرنسية رسمية في محاكمها ودوائرها فألهم هذا الحدث الحمصي موضوع تلك القصيدة التي يقول في مطلعها :

يا لله يا نسمات الرند والبان من نجد جئت أم من روض غسان
فان يكن ريحاً من ملابسها فطيب ليلى بأنفاس وأردان
حاضرها انها والحسن غايتها لها حواسد من أهل وجيران

ولئن بدا الحمصي محافظاً أشد المحافظة على اللغة والأسلوب انهُ لم يكن من المتعنتين الواقفين من جدة العصر ومستحدثاته موقف الجمود فانك ترى في نثره وشعره مع تلك المحافظة على اللغة والأسلوب أغراضاً عصرية شائقة بين معرَّب وموضوع جلاها في مقالات وقصائد وموشحات مثالاً رائعاً للقصص الشعري والوصف الحصري وفي موشحاته التي تناول فيها وصف الشؤون الطبيعية يقول أمام اللغة الشيخ ابراهيم اليازجي أنهُ لم تجر عليها قافية عربية من قبل وهذه شهادة لها قيمتها عند العارفين وان شئت أن تسمع تنديده بالجامدين والمقلدين فاقرأ موشحه «ميلاد الربيع» الذي يقول في مستهله:

انت من يا من على تلك الدمن يذرف الدمع ويستبكي الطلول
كم تناديها ولو أصغت لمن جاءها مستنطقاً كانت تقول
عد عن جهلك ياهذا الفتى كم سوارا او قريطاً او جريرا أو زهيراً أو اياساً أو هلال
او أبا النشناش والجمع الغفير من ملوك الشعر أرباب الفعال
كلكم يفعل أفعال صبي تندبون الربع أو بيت الوتر أو خيالاً زار ليلا ورحل
او حصاناً أو بعيراً قد عقر تضعون الدر في عنق الجمل
وخميس الترب فوق الذهب منذ الفي سنة بل ضعفوا فأبكم ترديد هذا النغم
تلك حال حسبها في وصفها حال قوم سلكوا في الظلم
وأضاعوا وقتهم في الطلب ذاك أو يقرب منه ما رواه عنكم التاريخ في فن القريض
بد حرتم كل شرط في مداه ولكم في نظمه جاد عريض
من نسيب أو مديح كذب وعن النقيب أعرضتم سوى ما أتى من مثل أو قافيه
وعظيم ابكرو مع مافيه وى من أعاجيب شؤون خافيه
لم يكن فيه لكم من سبب

فكأن الشلال من تلك الشلالات كان يتفرع جداول وسواقي كذلك كان شلال الشريعة الحمصي متفرعاً الى كثير من الجداول والسواقي فمن مطارحات ومداعبات إلى إخوانيات وخصوصيات إلى نسيب ومدح ورثاء رسم في ذلك كله صورة صادقة لحياته في جدها ولهوها ولخلجات نفسه في سرورها وحزنها ومجزىء عن هذا الفيض بعض الوصل توفية هذا الإطار الذي أرتضينا ان نحف به صورة حياته

فمن مداعباته ما كتبهُ الى صديقه شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عند زيارته القاهرة سنة ١٩٠٢ ورؤية الخلان والاصحاب قد افترق عقدهم وتفرّق شملهم قال :

أصحابنا في مصر قد سبموا ... أصحابهم واستعصبوا الذكرى
سألت عنهم واحداً واحداً ... فلتة عنهم أحسن البشرى
كأنهم قد حصروا السعي في ... جمع الثراء الغاية الكبرى
وضيعوا كل تقلي بعدها ... للانس في المرجودة الاخرى

ومن هذا الباب ما قاله ايضاً وقد رأى النقاش في غرفة مكتبه يناوش في نقش السقف وتزويقه

هب ان هذا السقف من سجد ... وان هذي الارض من فضة
أليس ذا عزبة كلسه ... والمنزل الآخر في حفرة

وأروع ما قرأناه له في الرثاء رثاؤه الشيخ ابرهيم اليازجي والملك فيصل وسعيد باشا شقير واسعد خليل داغر . على أن أرق مراثيه قصيدته في حفيد له وقد كان له في قلبه منزلة لا تدانى لما كان عليه من حب العلم وما كان متحلياً به من آي الذكاء قال :

كيف أسبت يا حبيبي بعدي ... أسريراً حللت أم عرش مجد
كنت للعين قرة وسروراً ... للفؤادي ونجم أنسي وسعدي
ليتني مت قبل يومك بل يا ... ليتني قد سكنت ملك بلحد

ولعل هذه العاطفة الصادرة عن مثل هذا القلب الجريح هو أن الحمصي كان جم الشغف بأحفاده وحفيداته شغفه ببناته الخمس وكلهن وكلهن في المقام الأول من أدب النفس وأدب الدرس وفي بناته يقول :

انت يمن يوم عمائي ... التقيه بنباني
ذقت من لذات دهري ... كل أنواع الطيبات
كنت فوق الارض روحاً ... ساكناً هيكل ذاتي
تضاعفت فروحي ... هي في خمس بناتي
فحياتي في بناتي ... ان يمن يوم عمائي

هذه لمحة عن حياة هذا الشاعر وعن سحر فنونه بعد اذ جمع في تلك الفنون من حكمة المعري وثبات المتنبي وسلاسة البحتري ووصف ابن الرومي وما أجدر كل فن من فنونه أن يكون موضوع دراسة برأسها